مـــــدن

أربيـــــل

محمد سعدون السباهي

تصوير:سمير هادي

بدعوة من اتحاد الأدباء والكتاب الكورد، ذهبت وعدد من أدباء وكتاب العراق العرب، صيف عام ١٩٨٨، لحضور دورتهم الانتخابية .

كلما أوغلت بنا السيارة شمالاً، خف لهيب الرياح، واستبدلت الأرض من شكلها المنبسط المثير للضجر والنعاس، بأشكال يتفتح لمرآها الذهن والروح معاً، حيث الوديان العميقة، والجبال الهائلة بصخورها الصلدة الملونة. زرقاء ، صفراء سوداء، بنفسجية، وبالالوان كافة، تتغير هي الاخرى تبعاً لمساقط أشعة الشمس التي يشتد سطوعها، ومن ثم تخبو ، وذلك على اثر دوران السيارة في المنعطفات والمنحنيات صعوداً ام هبوطاً .. تعرّش على مناكب الجبال والتلال غابات من أشجار متنوعة: البلوط، الجوز، التين والتكي، ثمة مروج شاسعة ترتع بها، معافاة قطعان الماعز والأغنام وبعض البغال والخيول، وفي الافق تشاهد ممرات البغال منحوته في الصخر الاصم: ضيقة ومتعرجة تعود الى القرى المعلقة، في الأعالي مثل أعشاش النسور.

وصلنا الى أربيل مساءً فاستقبلتنا بنسائم من حرير، وبالأحضان أخذنا الأدباء والفنانون، وعدد كبير من الناس، وعلى الفور قرع على الطبل، ونفخ في المزمار، ولعب بالمناديل الحمر البيض، وتشكلت في ساحة مبنى المحافظة حلقة رقص واسعة من فتيان صلبي العود، وفتيات سبحان الخالق!

بعد الانتخابات التي جرت وسط جو تنافسي، ساخن ونظيف، عكس عنفوان المثقف الكوردي وأصالته، توزعنا ضيوفاً على عدد من بيوت الزملاء هناك، وكنت من حصة شاب يتقد حماساً وذكاءً وسخاء، له اهتمامات مسرحية جيدة، نصب لنا مائدة امام منزله، وكان الجيران العائدون من السوق ما أن يعلموا بنا حتى يبادروا بالسلام علينا مرحبين فرحين، وكان يخرج بعضهم من أكياسه، في سرور واضح، الفاكهة ويضعها بسخاء في اطباقنا.

لم يكن لبيت مضيفنا وبقية بيوت تلك الحارة أسيجة، انها هكذا مفتوحة في صراحة مطلقة على الطبيعة الام، شان قلوب من تعرفت اليهم من الأصدقاء الكورد امثال: خسرو الجاف، د.كمال مظهر، د. بدرخان السندي، شفيق الجاف، محمد البدري، حسين الجاف، والمرحوم عادل فؤاد، وبقليل من الخيال يمكن ان نتصور جمال ليلة التم فيها قوم تجمعهم حرفة الكتابة، وصفاء السريرة، يغطيهم قمر في أوج اكتماله بنثارٍ غزير من الفضة !.

وعلى الرغم من أنني كنت قد سهرت ليلة البارحة، مع من سهروا حتى ساعة متأخرة جداً، غير أنني، وعلى غير ما اعتدت عليه من محبة لنومة الصباح، نهضت مبكراً، أخذت دشاً بارداً وغادرت الفندق الى المدينة، نشطاً ومنشرحاً، من دون وجهة محددة، فانا ازور المدينة اول مرة، درت طويلاً في احيائها وشوارعها، توغلت كثيراً في أزقتها وأسواقها، تذكرت أمي في هيئة عجائزها المتعبات، وطفولتي في صبيتها الذين يلعبون (الخرز) امام بيوتهم .

أكلت تيناً مجففاً نظم بخيوط الخيش، على هيئة لفات كبيرة معلقة كأطواق من الكهرمان عند واجهة محل للبقالة، ومثلما كنت افعل أيام الشباب ملأت جيوبي بالزبيب الأسود اللذيذ والكرزات، وقبل ذلك كنت قد التهمت اسياخاً من الكباب، صمغ سمنه المستحلب اصابعي وشفتي، واستمعت في اثناء تسكعي الى أغانٍ لا يحتاج رجل مثلي الى معرفة لغتها كي يكتشف كيف انها تشبه، الى حد بعيد مثيلاتها في مدينتي الجنوبية :

مرشوشة بالعذوبة الآسرة، مغموسة بالأسى والشكوى من ظلم طال ولا من فرج قريب في إزاحته! وشاهدت الينابيع الدفاقة وهي تغسل بمائها الرقراق أقدام المدينة المشيدة بالحجر الصلب المرقش، التي تحتضنها سلسلة من جبال تتمزق على هاماتها تجمعات الغيوم المبكرة الى نتف صغيرة، ولعل اكثر ما أثار فرحي، خلو المدينة التام من حشرات امقتها بشدة كالذباب والبعوض والنمل، وهذا من دون شك مؤشر لمدينة متحضرة، تخلو من النفايات والمستنقعات والمجاري المكشوفة.

توقفت طويلاً عند اكثر من مشهد مسل طريف: عجوز رشيق نحيف مثل قصبة البوص، يجلس وسط مجموعة سلال مملوءة بالتبغ المحلي المرصوص، يحيط به عدد من القرويين بشراويلهم الواسعة، وانطقة هي لفات مضفورة من القماش المرصع بالازهار الملونة، باصابع متمرسة يلفون السجاير من تبغ السلال ويدخنونها بالتناوب، حتى إذا ما اعجب احدهم صنف معين منه ابتسم لنفسه برضا، وهز رأسه في حبور، واخذ ينفث الدخان في الفضاء منتشياً، ثم يبتاع الكمية التي يحتاجها، وينصرف مرحاً فقد عثر بعد طول عناء، على ضالته من التبغ ! مجاميع القرويات العجائز يقفن في كراج المدينة العام، ملتفات على بعضهن، بقامات قشرها العمل المضني ، والسير في الطرق الوعرة، وقد راحت الرياح تلهو بذوائبهن الشائبة الطويلة السائبة من تحت عصابات الرأس المزركشة، يدخنّ، ويتحدثن في ما يشبه الهمس، وقد طرحن على الارض سلالاً جدلنها من اغصان بعض الاشجار، محشوة بالصرر، بانتظار قدوم السيارة التي تقلهن، قبل حلول الظلام الى قراهن البعيدة المنتشرة عند سفوح الجبال، تلك المجاميع من النسوة الرائعات المتعبات رحت فيما بعد التقي بهن بكثرة، واتعرف على ظروفهن ومصائرهن على نحو افضل على صفحات روايات أبنهن المخلص (خسرو الجاف).

ثمة جامع اثري وسط المدينة، أقام طائر اللقلق على منارته السامقة عشاً كبيراً، الطائر لا يفتأ يدور محلقاً فوق احياء المدينة، ليعود وقد ملأ منقاره الطويل بالطعام ليزقه داخل اشداق فراخه الثلاثة، التي تبدو من صيحاتها الثاقبة، إنها لا تريد (أباها) ان يرتاح !

قبالة الجامع عبر الشارع الضيق محل لبيع الخضار. يبدو ان صاحبه قد إنقطع عن المجيء اليه منذ عدة ايام، وهذا واضح من باقات البقدونس والفجل والريحان الذابلة في سلالها، ومن طائر البلبل النافق في قفصه، ثم جاء من اكد توقعاتي، إذ وقف امام بوابته الحديدية المشبكة رجل يحمل تحت إبطه بساطاً من الصوف الملون، بدت على وجه الرجل الحيرة، فعن له ان يستفسر من شاب يقف عند باب متجره المجاور مكتظ ببدلات نسائية من تلك التي تطلبها القرويات، بسيطة وبألوانٍ فاقعة، ورأيت الرجل يغادر المكان مسرعاً من جراء ما وصل اليه من جواب إذ كسا وجهه الذعر. وبدا وهو يلوح بيديه اكثر مما يتكلم أشبه بحال (بالع الموس) كما يقول المثل، الأمر الذي جعلني أخمن من خلال كلامه المتعثر وحركة يديه المتشنجة، انه قال له كلاماً مثل:

(اللعنة ! إغرب عن وجهي، لقد أخذوه..)

توقفت عند محل يبيع عصير الرمان ، قدم الرجل ليّ كوباً من السيراميك الانيق، طافحاً بالعصير الوردي المبرد الذي تم تحضيره امام بصري، إرتشفت على مهل، وبعد كل رشفة امرر لساني على شفتي ملتذاً، وإذ مالت الشمس الى المغيب فقد كسا غرب المدينة لون ارجواني شاحب، استفسرت من الحانوتي عن مكان فندقي، وما ان علم انني زائر من بغداد حتى اعاد المبلغ وهو يعتذر، وهرع ليعد كوباً آخر، لكنني طرحت النقود على المنضدة وغادرته مسرعاً، إلوح له بكلتا يدي امتناناً .

عند عودتي الى بغداد ملأت حقيبتي بالكرزات والتين وبطيخ أثار شكله الكروي الصغير، وطعمه الذي ما تذوقه احد ونسيه، دهشة العائلة !.

ولأنها تشبه مدينة (ليندرا) التي وصفها كالفينو في كتابه المدهش:

مدن لا مرئية: (يعتقد الذي يصلها ، انه سيحملها معه حين يغادرها ..)

ظلت أربيل، المدينة والطبيعة والناس منذ تلك الزيارة اليتيمة، حية تنبض في تلافيف الذاكرة .

أحياناً كثيرة تتلبسني الرغبة في معاودة زيارتها، لأقف على حال بائع التبغ العجوز وزبائنه، وأتأكد بنفسي هل ان صاحب محل الخضار المهجور عاد سالماً، واستبدل بلبله الميت بآخر ينط داخل قفصه ويغرد، ام التهمته مقابر الطغاة المهزومين الجماعية؟ واتفقد ما آلت اليه الامور بالنسبة لطائر اللقلق، وفيما لا يزال في عشه الباذخ الكبير، فوق المنارة التاريخية يفرخ لقالق جميلة بالابيض والاسود؟ ام ان الطلقات التي كثرت وتنوعت مصادرها في السنوات القليلة التي اعقبت زيارتي، صرعته، او اجبرته على الهجرة الى مكان مجهول، وربما اصابته في ساقه او جناحه، فانطوى على نفسه وقد كف عن التناسل، والطيران البهي !.

قصة قصيرة

حكاية رجل الزيتون

أنور عبد العزيز

الكهل المبتلى الحائر الحزين وقد أثقل عليه المكان وناسه وهتكا روحه وجسده ووجوده، قرّر أن يفعلها هذه المرّة فمهما كان طريق الهروب والتيه قاسياً فهو سيكون أقّل تيهاً وأيلاماً من هذه الندوب والجروح التي يبدو أنها لن تتعافى أو تخفت بحرقتها ولظاها، وبعد أن تأكّد له أن علاج الزمن ليس غير تخدير وخرافة كاذبة ملفّقة .. هي هي تلك البلدة غير البعيدة عن مدينته الصاخبة المجنونة، ليس غيرها تلك البلدة التي كانت الحلم الأبدي في كل سرحانه بخياله الجامح يطمح ويطمع في أن تصير له المأوى، يحتمي بها فينغمر بأمانها ودعتها وصمت وسكون أهلها المسالمين، ورغم أنه يعرف أن الطريق اليها موحش وكئيب صخري رملي محفوف بصوت الضباع والذئاب وتقافز الأرانب الهلعة وخفّة السحالي البشعة وتوثب وتأهب الأفاعي والعقارب وزعيق الجوارح، رغم أنه يعرف ذلك ويعرف أنه صار كهلاً عاجزاً متعباً ومنهكاً في حركة قدميه الواهنتين وكل جسده ولم يعد يملك الاّ نفسه وزوّادة خبزه ونثاراً من النقود الشحيحة فأنه قرّر أن يفعلها هذه المرّة، لابّد من أن يصلها ويحقّق حلمه، القرية الجبلية بلدة الوليّ التاريخي والقلاع الحجرية والمراقد والقبور المخروطية البيضاء العتيقة لأوليائها وسادتها وعموم الناس، كلّها مخروطية وكلّها بيضاء متشابهة، لن يبخلوا عليه بسكن ولو في مقبرة، لن يطلب منهم أكثر من ذلك، غرفة صغيرة تحنو عليها شجرة زيتون أليفة للروح، وظلّ حلمه ملتهباً حتى عندما وجد نفسه في الطرف المعزول للبلدة وفي قلبها وسوقها ومطعمها الوحيد. بعد ثوان، كان وهو يحاور صبيّ المطعم الصغير مذهولاً بجماله وعذوبة كلماته وحنانه وبطريقة أستقباله الرقيقة الودودة، ماصدّق أنه يتكلّم مع بشر، وجه الصبي وجه ملائكة النور، لم يشك في ذلك أبداً وأيقن كلما مرّ الوقت أنّ محدّثه ملاك، وعندما أشعر الصبّي بتعبه وحاجته للنوم، تبسّم الصبّي وعزل له مكاناً في زاوية المطعم الذي لم يكن غير نقرة عميقة عريضة محفورة في صخرة هائلة بجوار قلعة عتيقة، وزاد الصبّي أن مخدومه سيفرح بحضوره فهو يحبّ صحبة الغرباء، سيكون سعيداً بلقياك فهو قد آوى مثلك كثيرين، ستجده أنيساً مؤنساً مستلطفاً وجودك، لايفاجئه حضور الغرباء فهو يسعى بلهفة لالتقاط وتصيّد حكاياتهم، لن يبقيك هنا، سيأخذك لداره وربمّا سيحرمك من النوم اذا استلطف حكايات المدينة الضاجّة بغريب الأخبار، سيدي ممتلئ بشهوة الكلام متشوّق لكثير محروم منه في بلدتنا الصغيرة المكتفية بأقل الأحاديث لرغبة ناسها في الصمت والسكون .. باسترخاء المنهك المكدود أستكان وتمدّد على البساط المرعزي الأحمر الجميل المرسوم بثلاثة غزلان وشلاّل وبركة ماء، كان لايزال يحسّ في أذنيه تردّد طنينٍ لعواء ذئاب وضباع وزعيق جوارح الطير، لكن نعاساً ثقيلاً مهيمناً حرّره منها والصبي توقف عن الكلام خفت ذلك العواء واستحال لتنهدات وأنين، لم يعد يسمع غير رقرقة وحفيف ماء العين المواجهة للمطعم وقدّر أنّ الصبي صار مشغولاً عنه وغاب عن نظره .. كانت نومةً ثقيلة وأضطرب بين حلم وواقع المطعم والصبي الملائكي وأطمئنان الروح، غير أن وجوده المفضوح والمفاجئ في قلب السوق والدكاكين وباعة الخضار حيره، وهذا الجندي المدجّج بكل آفات القتل والموت وبوقفته كرمح وهو يغوص في عينيه من أين أتى ؟ ! كيف نبع ؟ ! وصف النساء المحجّبات وجرأة أحداهن للتعرّف على ما في زوّادة الغريب المغلقة، وانزواء تلك السافرة الساحرة بشعرها الجميل وهي قد سمّرت عينيها في عينيه وكأنها تحاول أن تنتزع وتكتشف سرّه ولم يتراخ الجندي أو يهمله، ظلّ محدّقاً بعينين حذرتين متوجستين تتمنيان لو أخترقتا العليقة، بقدرما أقلقته نظرات الجندي فهو لم ينزعج من نظرات المرأة المريبة المشدوهة فهي رغم تواصل تحديقها لم تنطق بشيء وربما كان ما نبهها اليه هو زيّه الغريب وحفاؤه وحزامه الخيطي ويعري رأسه ووجهه غير الحليق وزوادّة الخبز المرقعة الملّونة ربّما هي ما أثارت الفضول، وما الذي سيجنيه لو كفّت العينان الخضراوان عن التطلّع لوجهه وعينيه، وهو كان قد تعرّض لألوان من نظرات الدهشة والأستغراب، ولم يسلم من فضول الصغار عدا صبي المطعم، وهذا الصبّي يبرز له الآن بوجهه الوضيء في محنته وأجاب على أسئلته الحائرة المحيّرة .. غاب وجه الصبي، أكتسحه رعب وهو يشاهد ثوب أبنته الأثير لديها يحترق في غمرة السوق وضجيج النسوة والباعة، وسمعها تستغيث باسمه، ثمّ هو الآن بمواجهة الأهل واستفزاز الأخ الأكبر ودعوته وترغيبه للعودة معهم، وهو إن جزع واضطرب وضاع عقله من احتراق الثوب، فأن غيمة سوداء من ضباب معتم دهمت روحه وذاكرته وعينيه حتى نسي اسم البلدة، ولكن وجه الصبّي عاد، ببشاشته وبنعومة كلمات مطمئنة قال : لا تقلق فلم يحترق شيء، أهلك معك، ذاك هو الأخ الأكبر، أبعد نظرك قليلاً وتأملهم. ستجدهم في وهج العينين مرصوفين مرصوصين بجلسة ساكنة صامتة مستفهمة على المقعد الحجري الطويل .. كلّهم كلّهم وتلك سيّارتهم الضفدعية، لم يدر ماذا يفعل وأذناه تلتقط ذلك الكلام من فم الصبي الذهبي، أراد أن يقول للصبّي : انت واهم لقد هربت، كيف يكونون معي الآن ؟! لم يستحسن أن يقول أيّ كلام وهو يراهم فعلاً منغرسين كخنجر مدمى في روحه وجسده ووجوده، ثم أن محبّة الصبي وثقته بما يقول أخجلته من أن ينكر هذا الأمر .. غيمة الضباب وعتمة الروح أخرست فضوله لأي تساؤل جديد، ثمّ ذلك الكشف من الصبي أنّ قلق أهله كان موجعاً وأليماً وانّ فرحتهم بلقياه آنس نفوسهم، ما أنزاح عنه غموض الحالة والأرتباك رغم أنه قال للصبي أنه نادم على فعلته يدفعه إليهم حنين غامر، تبسم الصبي وعلت البشارة وجهه النوراني : أطمئن انهم معك وانت لم تغادرهم، عجيب أمر هذا الصبي فهو كان يعدّد له وبكركرة متناغمة أسماء أهله واخوته واحداً، واحداً، لم يشأ أن يواجه الصبي برفضه لمصالحتهم، ظلّ صامتاً، لم يفه بكلمة، وظلّ مرتاباً بمشاعر أخيه الأكبر وقد خبر دسائسه لعمر طويل .. أنغمر الكهل الهارب في حلم لقيا صاحب المطعم والحلم الأبهى بغرفة في المقبرة وشجرة زيتون وبالأطمئنان أنه وصل وصار فعلاً في بلدة ذلك الشيخ الوليّ الشاحب المهزول القويّ والمحترق بهموم الناس وحتى بحماقة ورعونه مطارديه وملجئيه لهذه القرية الخضراء الجائع أهلها الشبعة المرتوية بسلام المحبّة وصفاء الروح، أخترقت سيرة ذلك الوليّ الجليل الزاهد عمق القرون وسرت حبّاً وألفه ودعة في قلوب أهلها، تلك هي الهالة البيضاء في مرقده المخروطي ومثله قبره ومثله صارت كل المراقد والقبور. ليس غير البياض، ومنذ ذلك الزمن البعيد .. الكهل لن يفرّط بشيء من هذا الذي يراه ويسمعه عن ذلك الشيخ الوقور الحالم الحليم المتطّهر بجوعه وعريه وصبره وهمته ودموع عينيه، صبره بصفة الدهر ثباتاً وقناعة ومن ذلك الزمن الغابر الموغل حتى في صخور الجبل وهياكل القلاّع الحجريّة، وليّ الآلام رغم كل عذابه وهو يهشّ باشّاً بوجوه التائهين المحزونين مندّداً بمعذبيهم واعداً بالخلاص من محنهم الثقيلة الأليمة .. الآن صرت أسمع وبوضوح صوت اخي الرفيع الحادّ وأرى وجهه وفمه وشفتيه المزبدتين وهو يرسل نقيقه بشتائم لئيمة بوجه الصبّي متهماً البلدة وأهلها بأفسادي. ظلّ وجه الصبي ثابتاً راسخاً في وجه شاتمه وقد اتسعت أبتسامة في عينيه وزاويتي فمه و شملت كلّ وجهه الجميل صابراً على هذر اخي وثرثرته وطوافه بكل شتيمة مقذعة لاذعة. سمعت كل ذلك الهذر والعواء ورأيت وجه أخي محمراً مخنوقاً مسموماً بغضبه، وعجبت لصبر الصبي ولا مبالاته وكأنه يستمع لأنشودة جميلة مثيرة اللحن .. عادلي أضطرابي وحيرتي وجهلي بما يحدث لي، صار شكّي يقيناً بضياعي في متاهة غير أن وجودي على البساط الأحمر سارحاً مع الغزلان مروياً عطشي طارداً عرقي الساخن بماء العين مبّرداً بهواء الشلاّل الهادر، حصل كل ذلك بعد أن هدأت حمى نعاس وتعب الرحلة المضنية في وادي الرمل والصخر والأشواك، كان الصبي لايزال قريباً منّي أتسمّع صوت تقلّب الأواني المعدنية والملاعق والصحون بين يديه والحصى الناعم المطوّق لجرف العين ونتف من كلمات وتحيّات العابرين بالصبي، فما الذي أوصلني لسوق البلدة والجنديّ الدموي والنسوة المحجّبات وتلك الجميلة بشعرها الأثيث وعينيها الخضراوين، ومن الذي دلّني على أهلي وأخي ودلّهم عليّ حين رآهم مرصوفين كتماثيل جامدة فوق الدكّة الحجرية الطويلة على حافّة واد مشجّر مظلم عميق تكاد الدكّة تلامسه وتنزلق اليه .. من فعل ذلك أهو الصبي أم أن مجهولاً غادراً أراد أن يسخر من هربي، أبداً ليس هو الصبّي فهو قد آنسني وأعاد لي الثقة بنفسي المنهارة وبعد

أن هداني وعلّمني أسرار الصبر وخطيئة الأنزلاق لشرك اليأس مهتدياً بتعاليم الشيخ الوليّ بروحه الصابرة المطمئنة التي تعرف ماذا تريد وماذا تفعل ...

أيمكن أن مخلوقاً شائها شريراً غير مرئي فتن فتنته، وهذا ما استنكره ولا أصدّقه، ومن الذي يتجرأ على الكذب والفتنة وهو مكشوف في حضرة الصبي الحاضر ابداً حتى مع غيابه البلدة الخضراء تنطوي ملمومة محميّة بسفح الجبل الثلجي الحامي مزنّرة بألف شجرة وكل بيوتها زيتون حتى لتجدها بخضرتها الداكنة ملفوفة بألف شجرة زيتون وكل بيوتها زيتون حتى لتجدها بخضرتها الداكنة ملفوفة مكوّرة الأغصان متفرعة مغروسة الجذر في عمق التراب وصمّ حجارة القلاع بجدرانها المتهدّمة المتهاوية، سهل محصور من خضرة عميقة مسودّة تلتمع على أوراقها وأغصانها بؤر الشمس المشعّة وتشرق ببياض المراقد المخروطية المتلألئة ..

تقبّلت البلدة حكاية الرجل المهاجر، ويوماً سمعت أنه مات، عندما دارت أرجلهم في محيط غرفته الفسيحة البعيدة عن المقابر المجاورة للمطحنة الحجرية ومعصرة الزيتون المحاددة لبركة ماء بطّ القرية وأسراب الوزّ مع السمك المتقافز الصغير الذي لا يصلح الاّ للهو الصغار ولعبهم وتسليتهم بمراقبة قفزاته واختفائه بين الحصى والقصب صارخين مكررين محاولات صيده بالسنّارة أو التقاطه بأكفهم الصغيرة عندما يظهر قريباً من وجه ماء البركة .. الغرفة بفضاء بستان زيتوني مفتوح، وكان ما يبهجة ويتلذّذ به تلك الروائح اللذيذة المطيّبة التي يبعث بها النسيم كلّما هبّ ورقّ وكلّما غلت قدور الزيتون الكبيرة السوداء المضيئة بوهج جمر الخشب الجبلي والحطب اليابس، بالسائل الأخضر المصفر للصوابين فكل بيوت الجوار كانت تفعل ذلك وظلّ أنفه ملتذاً مشبعاً من ذلك العبق الطريّ ومن كلّ جهات الرياح والبيوت الأليفة .. تجوّل الرجال في مراح الدار، لم يجدوا غير بضع دجاجات بيض نظيفة هاجعة في ظلّ شجرة زيتون وديك منتش صاخب صيّاح زاه بحمرة ريشه وذيله وقطة صفراء مرضعة ومواء صغارٍ لاهين يمرحون على أثدائها وزادة الخبز معلّقة مترنّحة بمسمار على جدار متسلّخ مشروخ .

مات الغريب، لم يعرفوا متى وكيف، ربّما مرّت أمام عينيه وذاكرته المثقلة بالتعب صور أهله ومواقع من المدينة الصاخبة التي هجرها، ربّما حاول أن يستعرض بناظره الكليل ملامح أهله والمدينة، وربّما أغلق عينيه وعزل ذاكرته عندما تصدّى له وجه الأخ الأكبر واجتاح هدوءه وسكون روحه، الرجل المهاجر كان مطوياً بهزاله ونحوله وعينيه المفتوحتين على بساط الغزلان هديّة الصبّي الحنون .. لم تتأخر سواعد القرية وبدموع صامتة عن العمل، غسلوه، كفّنوه بالبياض، ترنّموا وقرأوا عليه من أدعياتهم المطمئنة للروح، نهض من غرفته قبر، وأرتفع منها مخروط كاد أن يطاول مرقد الوليّ الكبير ..

٢٠ / ٦ / ٢٠٠٥

من المكتبة الأجنبية

ذكريات رجل هامشي

تأليف :مكسيم رودنسون
الناشر: فايار، باريس ٢٠٠٥

مكسيم رودنسون (الرجل الهامشي) كما يحب أن يقدم نفسه دائماً، إنما هو أحد أهم المفكرين الفرنسيين في القرن العشرين. وبالتأكيد أحد أهم، إن لم يكن الأهم، المستشرقين الغربيين الذين جعلوا من الشرق الأوسط ومن التاريخ الإسلامي مركز اهتمامهم الرئيس. من أهم كتبه (الإسلام والرأسمالية) و(سحر الإسلام) و(بين الإسلام والغرب) و(الماركسية والعالم الإسلامي) و(من فيثاغورث إلى لينين).. الخ.

(ذكريات رجل هامشي) هو كتاب صدر بعد وفاة صاحبه يوم ٢٦ مايو ٢٠٠٤ في مدينة مرسيليا المتوسطية، وحيث كان عمره ٨٩ عاماً وقد وصفه الكاتب والمفكر (بيير فيدال ناكيه) الذي قدم لهذا العمل بأنه رجل ينتمي إلى زمن آخر، بل وانه (أكبر مفكر قابله طيلة حياته)، لاسيما من حيث معرفته (الموسوعية) التي تشمل العلوم والفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع والفكرين الإسلامي واليهودي، هذا فضلاً عن فهمه العميق للماركسية حيث كان عضواً طيلة سنوات عديدة في الحزب الشيوعي الفرنسي قبل أن يقرر تركه بسبب النزعة الستالينية التي (أدرك) أنها سائدة فيه.

أميربار

تأليف :الفارو موتيس
الناشر: نورما، برشلونة

ليس في وسع القارئ إلا الشعور بالفرح عند قراءة رواية (أميربار) للكاتب الكولومبي الفارو موتيس التي يروي فيها ماكرول مجريات الأحداث في (أميربار) عندما جرب حظه في استخراج الذهب. ونقرأ في الكتاب أن (أميربار) تعني على وجه العموم الأسطول في جورجيا، وهي كلمة تتحدر من العربية وتعني أمير البحر التي تترجم على نحو زعيم البحر.

هذه بعض السوابق الاشتقاقية لكلمة أمير البحر، المستخدمة من قبل موتيس لعنونة الحكايتين من حكاياته السابقة. و(أميربار) هي أيضاً صوت الرياح في الجبال عند مدخل المنجم وهي في الوقت نفسه نداء وتهديد من ملك البحار. وأمام هذا المشهد، يتوجه الملاح، المشبع باحترام يشوبه النفور، بدعاء إلى إله المحيطات الذي حملت الرواية اسمه (أمير البحر).

عنف المدن

تأليف :ايف بيدرازيني
الناشر: شارل ليبولد ماير، باريس ٢٠٠٥

(إذا كنت تريد السلام فينبغي أن تحضر الحرب) بهذه الجملة يبدأ المؤلف ايف بيدرازيني الباحث في مختبر السوسيولوجيا المدينية في مدينة (لوزان) السويسرية، وهو منسق الأعمال الخاصة بالعنف والأمن المديني في افريقيا وأميركا اللاتينية . بدأ كتابه ذا السبعة فصول،بجملة كهذه ليؤكد مباشرة بإنه يتم (تحضير الحروب) فعلاً في المدن الكبرى.. ولكن ليس على خلفية (إرادة السلام) بل ان مسألة (العنف المديني) تحتل كل يوم العناوين الكبرى في العديد من الصحف في العالم.. ناهيك عن أخباره في الإذاعات والتلفزيونات ذلك (ان العنف موجود في كل مكان، وهو في كثير من الحالات تعبير عن (تكتيك الفقراء) عندما (لا يصل إلى موائدهم ما يقتاتون به). (فمتى يكون الإنسان فقيراً قد يكون أحياناً عنيفاً). ويؤكد المؤلف في هذا السياق أن مدن الجنوب الكبرى خاصة تواجه إحدى ظاهرتين، فإما أنها تواجه العنف، أو أنها تستخدمه.. وفي الحالتين من أجل هدف محدد هو (النجاة من حالة النسيان الاقتصادي الذي تعيشه نسبة متزايدة من البشرية). لكن لماذا هذا القدر من العنف يتساءل المؤلف، ثم يقدم عناصر لإجابته: (الشرط الإنساني نفسه حيث يواجه البشر أحياناً مشاكل أكبر منهم).

عندما يتحدى (غوغل) أوروبا

تأليف :جان نويل جانوني
الناشر: ميل اون نوي، باريس ٢٠٠٥

هذا الكتاب هو (رد مباشر) على مشروع كان محرك البحث الأكثر شهرة في العالم على شبكات الانترنت قد أعلن عنه يوم ١٤ ديسمبر ٢٠٠٤ ومضمونه هو أن هذه المؤسسة المعلوماتية الأميركية تريد ان تقوم على أساس خطة تستمر ست سنوات بـ (ترقيم) ١٥ مليون كتاب مطبوع في جميع أنحاء العالم..

أي ما يعادل مجموعه ٤,٥ مليارات صفحة، ومؤلف الكتاب جان نويل جانوني وهو مؤرخ.. يترأس منذ عام ٢٠٠٢ المكتبة الوطنية الفرنسية، سبق له وقدم أكثر من عشرين كتاباً.

رد الفعل الأول المحتمل على مثل هذا المشروع الهائل هو الابتهاج أمام ما يمكن أن يؤمنه من تسهيلات لـ (القراء وذلك لأنه أيضاً يمثل تجسيداً لحلم كانت ملامحه الأولى قد بدأت منذ نهايات القرن العشرين والذي يمكن تلخيصه بالصيغة التالية: جعل جميع معارف العالم خلال المسيرة الإنسانية متوفرة مجاناً على شبكات الانترنت في جميع أنحاء المعمورة، وبحيث يمكن على بعد آلاف الكيلومترات (الدخول) إلى مكتبة جامعة هارفارد او ميتشيغان أو غيرهما والاطلاع على محتوياتها.

إلى هنا ليس هناك إلا (الخير) في هذا المشروع لكن جان نويل جانوني يطالب بـ (التدقيق) أكثر وتأمل ماذا يمكن أن يترتب عليه من تبعات ونتائج بعيدة.

انه يعني في المقام الأول تكريس الهيمنة الكاسحة للولايات المتحدة الأميركية في مجال تحديد الأفكار التي سوف تشكلها الأجيال القادمة عن العالم، ذلك أن مؤسسة (غوغل) الأميركية وذات البعد الدولي، وحتى لو كان وراء مشروعها بـ (ترقيم) ما أمكن مما أنتجته ثقافات العالم، لا يمكن أن تقوم بذلك بدافع نشر الثقافة والمعارف حباً فيهما.